

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المحقق

الحمد لله رب العالمين، الذي أكرمنا وجعلنا من المسلمين، وأمرنا أن نتفقه بهذا الدين، وأن نكون من العالمين العاملين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد إمام الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الطاهرين الوجلين المتقين، وأصحابه العلماء الورعين الوارثين، وعلى أتباعه من القراء والفقهاء والمحدثين، وعلى من تبعهم من المؤمنين، بإحسان إلى يوم الدين، حتى نلقى الله تعالى ونحن من الفائزين المستبشرين الضاحكين، آمين آمين آمين يا رب العالمين.

وبعد:

فقد أوكل إلينا الأخ الحبيب أبو عامر من غير موعد سابق، للعمل في كتاب «فقه السنة» للمرحوم السيد سابق، فأجبت له لأنه لا يسعني أن أرى في وجهه العتب، فأمثاله لا ترد لهم إشارة فكيف بالطلب، ورغم الشغل الشاغل والتعب، ورغم قلة العلم والعمل، فليس لنا من الله إلا حسن الظن وبه الأمل، فاطلعت على الكتاب المذكور، وقرأته بتمعن من غير تباطؤ ولا فتور، فأدهشني الكتاب وأخذ لبي، وتعلق بطياته قلبي، ولا شك أنه رحمه الله تعالى حاول جاهداً أن يقدم الفقه بأسلوب سهل، وبحلة جديدة وتفريعات جيدة على علم منه من غير جهل، ولقد لفت انتباهي كثرة جمعه في طيات كتابه الكثير من أقوال العلماء، من الصحابة والتابعين والمحدثين والفقهاء، مما جعلني أتتبع مصادره ومراجعته التي اعتمد عليها بالتصنيف، فوجدتها كثيرة، وبالوقوف عليها جديدة، مما يدل على وفور علمه، وغور فقهه وفهمه، ومما يبين لنا سعة اطلاعه وحسن انتقائه ودقة انتقابه، ولم نتبع في الكتاب ثغراته، فليس من شيمنا تتبع زلاته، فإن التتبع للزلات ليس من اللائق، حتى لا يفضحنا الله تعالى على رؤوس الخلائق، وإليك أخي الكريم أهم المصادر والمراجع، التي عدت إليها بالتحقيق، وعزوت إليها بالتدقيق:

فأما بالنسبة للحديث الشريف: فكان جلّ اعتماده على الصحيحين، أعني: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وهما أهم وأصح الكتب بعد القرآن الكريم.

وأما بالنسبة للسنن: فقد اعتمد على السنن الأربعة، أعني: سنن أبي داود، وسنن الترمذي، وسنن النسائي، وسنن ابن ماجه، وأكثر عنهم، كما اعتمد على السنن الكبرى للبيهقي، والسنن للدارقطني وأكثر عنهما كثيراً.

كما اعتمد على الصحاح الثلاثة: صحيح ابن خزيمة، وصحيح ابن حبان، وصحيح الحاكم، أعني: المستدرک على الصحيحين.

وأما بالنسبة لأقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم فكان جلّ اعتماده على المصنفين: أعني: المصنف لعبد الرزاق، والمصنف لابن أبي شيبة.

وأما بالنسبة للمنايد: فقد اعتمد على مسند الإمام أحمد وأكثر منه، ومسند إسحاق بن راهويه، ومسند الشافعي، ومسند الطيالسي، ومسند البزار، ومسند ابن الجعد.

وأما بالنسبة للمعاجم: فقد اعتمد على المعجم الصغير، والمعجم الأوسط والمعجم الكبير للطبراني وأكثر منها.

وأما بالنسبة للفقهاء: فقد اعتمد على أقوال أصحاب المذاهب الأربعة: أعني: الإمام أبا حنيفة، والإمام مالك، والإمام أحمد، والإمام الشافعي.

فاعتمد لأقوال أبي حنيفة على كتاب:

1 - حاشية ابن عابدين.

2 - بدائع الصنائع.

3 - الكامل في شرح الهداية.

واعتمد لأقوال الإمام مالك على كتاب:

1 - الموطأ.

2 - المدونة الكبرى.

واعتمد لأقوال الإمام أحمد على كتاب:

1 - المغني والشرح الكبير.

واعتمد لأقوال الإمام الشافعي على كتاب:

1 - الأم.

واعتمد كثيراً على أقوال أئمة الفقه وغيرهم، منهم:

الإمام ابن حزم في كتابه «المحلى بالآثار».
 والإمام ابن عبد البر في كتابه «التمهيد».
 والإمام النووي في كتابه «المجموع»، وكتابه «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج»،
 وكتابه «الروضة»، وكتابه «الأذكار».
 والإمام ابن المنذر في كتابه «الأوسط»، وكتابه «الإشراف على مذاهب الأشراف».
 والإمام ابن المرتضى في كتابه «البحر الزخار».
 والإمام الشوكاني في كتابه «نبيل الأوطار»، وكتابه «سبل السلام».
 والإمام القونوي في كتابه «فتح العلام».
 والإمام القونجي في كتابه «الروضة الندية».
 والإمام ابن حجر في كتابه «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، وكتابه «تلخيص
 الحبير»، وكتابه «الدراية»، وكتابه «بلوغ المرام».
 والإمام ابن القيم في كتابه «تهذيب سنن أبي داود»، وكتابه «زاد المعاد»، وكتابه «الروح»،
 وكتابه «إغاثة اللهفان».
 والإمام الخطابي في كتابه «معالم السنن».
 والإمام الدهلوي في كتابه «المسوى».
 وهذا على سبيل العلم بهم وليس على سبيل الحصر، لأنه رحمه الله تعالى اعتمد أيضاً
 على الكتب الفقهية الحنفية والمالكية والحنبلية والشافعية، بالإضافة إلى غير من ذكرنا من
 أصحاب كتب الحديث الشريف، ولو أردنا أن نتتبع كل أقوالهم في الكتاب، لأصبح الكتاب
 بسبع مجلدات أو أكثر، وفي هذا القدر كفاية، لأولي الألباب، والله تعالى أعلم.
 وأخيراً أسأل الله تعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، فإنه لا علم لنا إلا ما
 علمنا، إنه هو العليم الحكيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا
 محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفقير إلى عفو الله تعالى ورحمته

خليل بن مأمون شيخنا

غفر الله له ولشيخه ابن عبد المحسن ولوالديه وللمسلمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة للإمام الشَّهِيدِ فَضِيلَةَ الْأُسْتَاذِ حَسَنِ الْبَنَّا

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ. ﴿ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ يُسَبِّحُونَكَ كَثِيرًا ۖ قَلِيلًا نَفَرَ مِنْ كُلِّ رِزْقٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١)

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْقُرْبَانِ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَشْرَ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَنَشْرَ الْأَحْكَامِ الدِّيْنِيَّةِ، وَبِخَاصَّةٍ مَا يَتَّصِلُ مِنْهَا بِهَذِهِ التَّوَاجِيهِ الْفِقْهِيَّةِ، حَتَّى يَكُونَ النَّاسُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ فِي عِبَادَاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ لَمْ يُوْرَثُوا بِنَارًا وَلَا بِذَهَبًا، وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَالْإِيرِ» (٢).

وَإِنَّ مِنْ أَلْطَفِ الْأَسَالِيْبِ وَأَنْفَعِهَا، وَأَقْرَبِهَا إِلَى الْقُلُوبِ وَالْعُقُولِ فِي دِرَاسَةِ الْفِقْهِ الْإِسْلَامِيِّ - وَبِخَاصَّةٍ فِي أَحْكَامِ الْعِبَادَاتِ، وَفِي الدَّرَاسَاتِ الْعَامَّةِ الَّتِي تُقَدِّمُ لِجُمْهُورِ الْأُمَّةِ - الْبُعْدُ بِهِ عَنِ الْمُضْطَلَّحَاتِ الْمَنِيَّةِ، وَالتَّفْرِيعَاتِ الْكَثِيرَةِ الْفَرْضِيَّةِ، وَوَضْلُهُ مَا أَمَكَّنَ ذَلِكَ بِمَآجِدِ الْأَدِلَّةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي سُهولةٍ وَيَسْرٍ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَى الْحِكْمِ وَالْفَوَائِدِ مَا أُتِيحَتْ لِذَلِكَ الْفُرْصَةُ، حَتَّى يَشْعُرَ الْقَارِئُونَ الْمُتَفَقِّهُونَ بِأَنَّهُمْ مُؤْضَلُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، مُسْتَفِيدُونَ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى، وَفِي ذَلِكَ أَكْبَرُ حَافِزٍ لَهُمْ عَلَى الْاسْتِزَادَةِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ، وَالْإِقْبَالِ عَلَى الْعِلْمِ.

وَقَدْ وَفَّقَ اللَّهُ الْأَخَ الْفَاضِلَ الْأُسْتَاذَ الشَّيْخَ: السَّيِّدَ سَابِقَ، إِلَى سُلُوكِ هَذِهِ السَّبِيلِ، فَوَضَعَ

(١) سورة التوبة، الآية: 122.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (الحديث: 3641).

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (الحديث: 3641).

هذه الرسالة السهلة المأخذ، الجمة الفائدة، وأوضح فيها الأحكام الفقهية بهذا الأسلوب الجميل. فاستحق بذلك مشيئة الله إن شاء الله، وإعجاب العُورين على هذا الدين، فجزاه الله عن دينه وأُمَّته ودَعْوَتِهِ خَيْرَ الْجَزَاءِ، وَنَمَعَ بِهِ، وَأَجْرَى عَلَى يَدَيْهِ الْخَيْرَ لِنَفْسِهِ وَلِلنَّاسِ. آمين.

حسن البنا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الْأَوْلِيَيْنِ وَالْآخِرِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ أَهْتَدَى بِهِدْيِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ».

أما بعد: فهذا الكتاب يتناول مسائل من الفقه الإسلامي مقرونة بأدلتها من صريح الكتاب وصحيح السنة، ومما أجمعت عليه الأمة. وقد عرضت في يسر وسهولة، ونسب وامتداد لكثير مما يحتاج إليه المسلم، مع تجنب ذكر الخلاف إلا إذا وجد ما يسوغ ذكره فنشير إليه. وهو بهذا يعطي صورة صحيحة للفقه الإسلامي الذي بعث الله به محمداً ﷺ، ويفتح للناس باب الفهم عن الله ورسوله، ويجمعهم على الكتاب والسنة، ويقضي على الخلاف ويدفعه التمسك بالمذاهب، كما يقضي على الحرافة القائلة بأن باب الاجتهاد قد سُدَّ.

وهذه محاولات أردنا بها خدمة ديننا، ومنفعة إخواننا، ونسأل الله أن ينفع بها، وأن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم، وهو حسبننا ونعم الوكيل.

القاهرة في 15 من شعبان 1365هـ/ف

السيد سابق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَمْهِيدٌ

رسالة الإسلام وعمومها والغاية منها: أرسل الله محمداً ﷺ بالحنيفية السمحة، والشريعة الجامعة، التي تكفل للناس الحياة الكريمة المهدية، والتي تصل بهم إلى أعلى درجات الرقي والكمال. وفي مدى ثلاثة وعشرين عاماً تقريباً، قضاها رسول الله ﷺ، في دعوة الناس إلى الله، ثم له ما أَرَادَ مِنْ تَبْلِيغِ الدِّينِ وَجَمْعِ النَّاسِ عَلَيْهِ.

عموم الرسالة: ولم تكن رسالة الإسلام موضعية محددة، يختص بها جيل من الناس دون جيل، أو قبيل دون قبيل، شأن الرسالات التي تقدمتها، بل كانت رسالة عامة للناس جميعاً، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ لا يختص بها مضر دون مضر، ولا عضر دون عضر. قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (1) وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِنَاسٍ بَيْنَهُمَا نَكِيرًا﴾ (2) وقال تعالى: ﴿فَلْيُبَايِعُوا النَّاسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ حُبِبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (3) وفي الحديث الصحيح (4): «كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ فِي قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَيُبْعَثُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ». وبما يؤكد عموم هذه الرسالة وشمولها ما يأتي:

1 - أنه ليس فيها ما يضر على الناس اعتقاده، أو يشق عليهم العمل به، قال الله تعالى: ﴿لَا يَكُفُّ اللَّهُ قَسَا إِلَّا وَسْمَهَا﴾ (5) وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (6). وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (7). وفي البخاري (8) من حديث

(1) سورة الفرقان، الآية: 1.

(6) سورة البقرة، الآية: 185.

(2) سورة سبأ، الآية: 28.

(7) سورة الحج، الآية: 78.

(3) سورة الأعراف، الآية: 158.

(8) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: الدين

(4) أخرجه مسلم في «الصحيح» (الحديث: 1163).

يسره (الحديث: 39).

(5) سورة البقرة، الآية: 286.

أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ». وفي مُسْلِمٍ (1) مَرْفُوعاً: «أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْحَنِيفَةُ السَّمْعَةُ».

2 - أَنْ مَا لَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، كَالْمَعَايِدِ وَالْعِبَادَاتِ، جَاءَ مُفَصَّلاً تَفْصِيلاً كَامِلاً، وَمَوْضِعاً بِالتَّصْوِصِ الْمُحِيطَةِ بِهِ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَزِيدَ فِيهِ أَوْ يُنْقِصَ مِنْهُ، وَمَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، كَالْمَصَالِحِ الْمَدَنِيَّةِ، وَالْأُمُورِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْحَرْبِيَّةِ، جَاءَ مُجْمَعاً، لِيَتَّفِقَ مَعَ مَصَالِحِ النَّاسِ فِي جَمِيعِ الْعُصُورِ وَيَهْتَدِي بِهِ أَوْلُو الْأُمْرِ فِي إِقَامَةِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ.

3 - أَنْ كُلَّ مَا فِيهَا مِنْ تَعَالِيمٍ إِنَّمَا يُفَصِّدُ بِهِ حِفْظُ الدِّينِ، وَحِفْظُ النَّفْسِ، وَحِفْظُ الْعَقْلِ، وَحِفْظُ النَّسْلِ، وَحِفْظُ الْمَالِ، وَتَدْهِي أَنْ هَذَا يُنَاسِبُ الْفِطْرَةَ وَيُسَايِرُ الْعُقُولَ، وَيُجَارِي التَّطَوُّرَ وَيَضْلَعُ لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ مِنْ لِلرِّبِّ مَا لِلرِّبِّ مِمَّا أَمْتُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَعُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَنَا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ (2). وَقَالَ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿وَرَخِمَتِي وَمِيعَتِ كُلِّ شَيْءٍ فَسَأَخْتُمُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْكَلْبَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاذْكُرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَزَّرُوا بِمَنَّاتِهِمْ وَمَا أَوْلَاهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوا النَّبِيَ الَّذِي أُنزِلَ مِنْهُ أَوْلَايَتُكَ هُمُ الْمُتَّبِعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (3).

الغَايَةُ مِنْهَا: وَالغَايَةُ الَّتِي تَرْمِي إِلَيْهَا رِسَالَةُ الْإِسْلَامِ، تَرْكِيَةُ الْأَنْفُسِ وَتَطْهِيرُهَا عَنْ طَرِيقِ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ وَعِبَادَتِهِ، وَتَدْعِيمُ الرُّوَاطِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَإِقَامَتُهَا عَلَى أُسَاسِ مِنَ الْحُبِّ وَالرَّحْمَةِ وَالْإِحَاءِ وَالْمَسَاوَاةِ وَالْعَدْلِ، وَبِذَلِكَ يَسْعُدُ الْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَرُكُوبِهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْلٍ ضَلُّوا ضَلِيلًا ﴿١﴾﴾ (4). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ (5). وَفِي الْحَدِيثِ: «أَنَا رَحْمَةٌ مُّهْدَاةٌ» (6).

(1) بل أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: (4) سورة الجمعة، الآية: 2.
 (2) سورة الأعراف، الآيات: 32 - 33.
 (3) سورة الأعراف، الآيات: 156، 157.
 (4) سورة الأعراف، الآية: 107.
 (5) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (الحديث: 91 / 1).
 (6)

التَّشْرِيعُ الْإِسْلَامِيُّ أَوْ الْفِقْهُ

والتَّشْرِيعُ الْإِسْلَامِيُّ نَاجِيَةٌ مِنَ النَّوَاجِي الْهَامَّةِ الَّتِي أَنْتَظَمَتْهَا رِسَالَةُ الْإِسْلَامِ، وَالَّتِي تُمَثِّلُ النَّاجِيَةَ الْعَلَمِيَّةَ مِنْ هُدْيَةِ الرِّسَالَةِ. وَلَمْ يَكُنِ التَّشْرِيعُ الدِّينِيُّ الْمَخْصُصُ - كَأَحْكَامِ الْعِبَادَاتِ - يَضْدُرُّ إِلَّا عَنْ وَحْيِ اللَّهِ لِنَبِيِّهِ ﷺ، مِنْ كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ، أَوْ بِمَا يُقَرُّهُ عَلَيْهِ مِنْ اجْتِهَادٍ. وَكَانَتْ مُهِمَّةُ الرَّسُولِ لَا تَتَجَاوَزُ ذَايِرَةَ التَّبْلِيغِ وَالتَّيْبِينَ، ﴿وَمَا يَطُوقُ عَنِ الْمَوْعَاةِ (٢) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (١)﴾ (١).

أَمَّا التَّشْرِيعُ الَّذِي يَتَّصِلُ بِالأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ، مِنْ قَضَائِيَّةٍ وَسِيَاسِيَّةٍ وَحَرْبِيَّةٍ، فَقَدْ أَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ بِالمُشَاوَرَةِ فِيهَا، وَكَانَ يَرَى الرَّأْيَ فَيَرْجِعُ عَنْهُ لِرَأْيِ أَصْحَابِهِ، كَمَا وَقَعَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَأُحُدٍ، وَكَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ ﷺ، يَسْأَلُونَهُ عَمَّا لَمْ يَعْلَمُوهُ، وَيَسْتَشِيرُونَهُ فِيمَا خَفِيَ عَلَيْهِمْ مِنْ مَعَانِي النُّصُوصِ، وَيَعْرِضُونَ عَلَيْهِ مَا فُهِمُوهُ مِنْهَا، فَكَانَ آخِيَانًا يُقَرُّهُمْ عَلَى فَعْلِهِمْ، وَأَخِيَانًا يَبِينُ لَهُمْ مَوْضِعَ الْخَطَأِ فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ. وَالقَوَاعِدُ الْعَامَّةُ الَّتِي وَضَعَهَا الْإِسْلَامُ، لِيَسِيرَ عَلَى ضَوْئِهَا الْمُسْلِمُونَ هِيَ:

1 - النَّهْيُ عَنِ الْبَحْثِ فِيمَا لَمْ يَقَعْ مِنَ الْحَوَادِثِ حَتَّى يَقَعَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ مَسْئَلَةٌ وَإِنْ تَسَلَّوْا عَنْهَا جِئِن يُسْأَلُ الْقُرْآنُ بُدِّ لَكُمْ عَنَّا اللَّهُ عَنَّا وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ (١٥١)﴾ (٢). وَفِي الْحَدِيثِ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، نَهَى عَنِ الْأَعْلُوطَاتِ» (٣)، وَهِيَ الْمَسَائِلُ الَّتِي لَمْ تَقَعْ.

2 - تَجَنُّبُ كَثْرَةِ السُّؤَالِ وَعُضَلِ الْمَسَائِلِ: فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةَ

السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ» (٤). وَعَنْهُ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تُغْتَدِّوْهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تُنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنَ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا» (٥). وَعَنْهُ أَيْضًا: «أَعْظَمُ النَّاسِ جُرْمًا، مَنْ سَأَلَ عَنَ شَيْءٍ لَمْ يُحْرَمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ» (٦).

3 - البُعْدُ عَنِ الْاِخْتِلَافِ وَالتَّفَرُّقِ بِالدِّينِ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ (٧)﴾

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (٨). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنزَعُوا فَنَفْسَلُوا وَتَذَهَبَ

(5) أخرجه الدارقطني في «السنن» (الحديث: 184/4).

(6) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (الحديث: 3/725).

(7) سورة المؤمنون، الآية: 52.

(8) سورة آل عمران، الآية: 103.

(1) سورة النجم، الآيتان: 3 - 4.

(2) سورة المائدة، الآية: 101.

(3) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (الحديث: 19/389).

(4) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (الحديث: 224/20).

يُضَعِّبُكُمْ ﴿١١﴾. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَرَأُوا رَبِّيَمْ وَكَانُوا يَشِيكًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ ﴿١٢﴾. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانُوا يَشِيكًا﴾ ﴿١٣﴾. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَرُوا وَخَافُوا مِنْ بَدِي مَا جَاءَهُمُ النَّبِيُّ وَأُولَئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٤﴾.

4 - رَدُّ الْمَسَائِلِ الْمُتَنَازِعِ فِيهَا إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ: عَمَلًا بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ شَيْءٍ فَاذْكُرُوا إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولَ﴾ ﴿١٥﴾. وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ ﴿١٦﴾، وَذَلِكَ لِأَنَّ الدِّينَ قَدْ فَضَّلَهُ الْكِتَابُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانُوا يَشِيكًا﴾ ﴿١٧﴾. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ﴿١٨﴾. وَبَيَّنَّتْ السُّنَّةُ الْعَمَلِيَّةُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ ﴿١٩﴾. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْسَلَ اللَّهُ﴾ ﴿٢٠﴾. وَبِذَلِكَ تَمَّ أَمْرُهُ، وَوَضَحَتْ مَعَالِمُهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّتْ عَلَيْكُمْ بِعَمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ ﴿٢١﴾.

وَمَا دَامَتْ الْمَسَائِلُ الدِّيْنِيَّةُ قَدْ بَيَّنَّتْ عَلَى هَذَا النَّحْوِ، وَمَا دَامَ الْأَصْلُ الَّذِي يُرْجَعُ إِلَيْهِ عِنْدَ التَّحَاكُمِ مَعْلُومًا، فَلَا مَعْنَى لِلَاخْتِلَافِ وَلَا مَجَالَ لَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لِيُشَاقِقِ بَعِيدٌ﴾ ﴿١٢﴾. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ﴿١٣﴾. عَلَى ضَوْءِ هَذِهِ الْقَوَاعِدِ، سَارَ الصَّحَابَةُ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ الْمَشْهُودِ لَهَا بِالْخَيْرِ، وَلَمْ يَقَعْ بَيْنَهُمْ اخْتِلَافٌ، إِلَّا فِي مَسَائِلِ مَعْدُودَةٍ. كَانَ مَرْجِعُهُ التَّفَاوُتِ فِي فَهْمِ التَّصْوِصِ، وَأَنَّ بَعْضَهُمْ كَانَ يَعْلَمُ مِنْهَا مَا يَخْفَى عَلَى الْبَعْضِ الْآخَرِ.

فَلَمَّا جَاءَ أَيْمَةُ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ تَبِعُوا سَنَنَ مَنْ قَبْلَهُمْ، إِلَّا أَنَّ بَعْضَهُمْ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى السُّنَّةِ، كَالْحِجَازِيِّينَ الَّذِينَ كَثُرَ فِيهِمْ حَمَلَةُ السُّنَّةِ وَرَوَاةُ الْأَثَارِ، وَالْبَعْضُ الْآخَرُ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى الرَّأْيِ كَالْعِرَاقِيِّينَ الَّذِينَ قَلَّ فِيهِمْ حَفْظَةُ الْحَدِيثِ، لِتَنَائِي دِيَارِهِمْ عَنِ مَنَزِلِ الْوَحْيِ. بَدَلْ هَؤُلَاءِ الْأَيْمَةُ أَفْضَى مَا فِي وَسْعِهِمْ فِي تَعْرِيفِ النَّاسِ بِهَذَا الدِّينِ وَهَدَايَتِهِمْ بِهِ، وَكَانُوا يَنْهَوْنَ عَنِ تَقْلِيدِهِمْ وَيَقُولُونَ: لَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ قَوْلَنَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْرِفَ دَلِيلَنَا، وَصَرَخُوا أَنَّ مَذْهَبَهُمْ هُوَ

(8) سورة الأنعام، الآية: 38.

(9) سورة النحل، الآية: 44.

(10) سورة النساء، الآية: 105.

(11) سورة المائدة، الآية: 3.

(12) سورة البقرة، الآية: 176.

(13) سورة النساء، الآية: 65.

(1) سورة الأنفال، الآية: 46.

(2) سورة الأنعام، الآية: 159.

(3) سورة الأنعام، الآية: 159.

(4) سورة آل عمران، الآية: 105.

(5) سورة النساء، الآية: 59.

(6) سورة الشورى: 10.

(7) سورة الأنعام، الآية: 159.

الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَقْضُونَ أَنْ يُقْلَدُوا كَالْمَعْصُومِ ﷺ، بَلْ كَانَ كُلُّ قَضِيهِمْ أَنْ يُعِينُوا النَّاسَ عَلَى فَهْمِ أَحْكَامِ اللَّهِ. إِلَّا أَنَّ النَّاسَ بَعْدَهُمْ فَتَرَّتْ هِمَّتُهُمْ، وَضَعُفَتْ عَزَائِمُهُمْ، وَتَحَرَّكَتْ فِيهِمْ غَرِيزَةُ الْمُحَاكَاةِ وَالتَّقْلِيدِ، فَأَكْتَفَى كُلُّ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ بِمَذْهَبٍ مُعَيَّنٍ يَنْظُرُ فِيهِ، وَيَعُولُ عَلَيْهِ، وَيَتَعَصَّبُ لَهُ، وَيَبْذُلُ كُلُّ مَا أُوْتِيَ مِنْ قُوَّةٍ فِي نُصْرَتِهِ، وَيَنْزِلُ قَوْلَ إِمَامِهِ مَنْزِلَةَ قَوْلِ الشَّارِعِ، وَلَا يَسْتَجِيزُ لِنَفْسِهِ أَنْ يَقْتِي فِي مَسْأَلَةٍ بِمَا يُخَالِفُ مَا اسْتَنْبَطَهُ إِمَامُهُ، وَقَدْ بَلَغَ الْعُلُوُّ فِي الثَّقَةِ بِهِؤُلَاءِ الْأَيْمَةِ حَتَّى قَالَ الْكَرْخِيُّ: كُلُّ آيَةٍ أَوْ حَدِيثٍ يُخَالِفُ مَا عَلَيْهِ أَصْحَابُنَا فَهُوَ مُؤَوَّلٌ أَوْ مَنْسُوخٌ.

وَبِالتَّقْلِيدِ وَالتَّعَصُّبِ لِلْمَذَاهِبِ فَقَدَّتِ الْأُمَّةُ الْهِدَايَةَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَحَدَّثَ الْقَوْلُ بِاتِّسَادِ بَابِ الاجْتِهَادِ، وَصَارَتِ الشَّرِيعَةُ هِيَ أَقْوَالُ الْفُقَهَاءِ، وَأَقْوَالُ الْفُقَهَاءِ هِيَ الشَّرِيعَةُ، وَأَعْتَبِرَ كُلُّ مَنْ يَخْرُجُ عَنْ أَقْوَالِ الْفُقَهَاءِ مُتَبَدِّعاً لَا يُوثَقُ بِأَقْوَالِهِ، وَلَا يُعْتَدُ بِقَتَاوِيهِ. وَكَانَ مِمَّا سَاعَدَ عَلَى انْتِشَارِ هَذِهِ الرُّوحِ الرَّجْعِيَّةِ، مَا قَامَ بِهِ الْحُكَّامُ وَالْأَغْنِيَاءُ مِنْ إِنْشَاءِ الْمَدَارِسِ، وَقَضْرِ التَّدْرِيسِ فِيهَا عَلَى مَذْهَبٍ أَوْ مَذَاهِبٍ مُعَيَّنَةٍ، فَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ الْإِقْتِبَالِ عَلَى تِلْكَ الْمَذَاهِبِ، وَالانْتِصَافِ عَنِ الْجَاهِظِ؛ مُخَافَةً عَلَى الْأَرْزَاقِ الَّتِي رُبَّتْ لَهُمْ سَأَلَ أَبُو زُرْعَةَ شَيْخَهُ الْبُلْقِينِي قَائِلاً: مَا تَقْصِيرُ الشَّيْخِ تَقِيِّ الدِّينِ السُّبْكِيِّ عَنِ الْجَاهِظِ وَقَدْ اسْتَكْمَلَ كَتَبَهُ؟ فَسَكَتَ الْبُلْقِينِي، فَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ: فَمَا عِنْدِي أَنْ الْإِمْتِنَاعَ عَنِ ذَلِكَ إِلَّا لِلرُّوَافِقِ الَّتِي قُدِّرَتْ لِلْفُقَهَاءِ عَلَى الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ وَأَنَّ مَنْ خَرَجَ عَنِ ذَلِكَ لَمْ يَنْلَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَحَرَمَ وَلَايَةَ الْقَضَاءِ، وَأَمْتَنَعَ النَّاسُ عَنْ إِفْتَائِهِ، وَنَسِبَتْ إِلَيْهِ الْبِدْعَةَ فَأَبْتَسَمَ الْبُلْقِينِي وَوَافَقَهُ عَلَى ذَلِكَ. وَيَالْعُكُوفِ عَلَى التَّقْلِيدِ، وَقَدِّ الْهِدَايَةَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالْقَوْلِ بِاتِّسَادِ بَابِ الْجَاهِظِ وَقَعَتِ الْأُمَّةُ فِي شَرٍّ وَبَلَاءٍ وَدَخَلَتْ فِي جُحْرِ الضُّبِّ الَّذِي حَدَرَتْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهُ.

كَانَ مِنْ آثَارِ ذَلِكَ أَنْ اخْتَلَفَتِ الْأُمَّةُ شَيْعاً وَأَحْزَاباً، حَتَّى إِنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي حُكْمِ تَزْوِجِ الْحَنَفِيَّةِ بِالشَّقِيعِي، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَصِحُّ؛ لِأَنَّهَا تُشَكُّ فِي إِيمَانِهَا، وَقَالَ آخَرُونَ: يَصِحُّ قِيَاساً عَلَى الذَّمِّيَّةِ. كَمَا كَانَ مِنْ آثَارِ ذَلِكَ انْتِشَارُ الْبِدْعِ، وَاخْتِفَاءُ مَعَالِمِ السُّنَنِ وَحُمُودُ الْحَرَكَةِ الْعَقْلِيَّةِ، وَوَقْفُ النَّشَاطِ الْفِكْرِيِّ، وَضَيَاعُ الْإِسْتِقْلَالِ الْعِلْمِيِّ، الْأَمْرُ الَّذِي أَدَّى إِلَى ضَعْفِ شَخْصِيَّةِ الْأُمَّةِ، وَأَفْقَدَهَا الْحَيَاةَ الْمُتَنَبِّجَةَ، وَقَعَدَ بِهَا عَنِ السِّيَرِ وَالنُّهُوضِ، وَوَجَدَ الدُّخْلَاءَ بِذَلِكَ نَغْرَابَاتٍ يَنْفُلُونَ مِنْهَا إِلَى صَمِيمِ الْإِسْلَامِ. مَرَّتِ السُّنُونَ، وَأَلْقَصَتْ الْغُرُونَ، وَفِي كُلِّ جَبِينٍ يَبْعَثُ اللَّهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا، وَيُوقِظُهَا مِنْ سُبَاتِهَا، وَيُوجِّهُهَا الْوَجْهَةَ الصَّالِحَةَ، إِلَّا أَنَّهَا لَا تَكَادُ تَسْتَيْقِظُ حَتَّى تَعُودَ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، أَوْ أَشَدَّ مِمَّا كَانَتْ.

وَأخيراً أَنْتَهَى الْأَمْرُ بِالتَّشْرِيعِ الْإِسْلَامِيِّ، الَّذِي نَظَّمَ اللَّهُ بِهِ حَيَاةَ النَّاسِ جَمِيعاً، وَجَعَلَهُ سِلَاحاً لِمَعَاشِيهِمْ وَمَعَادِيهِمْ، إِلَى دَرَكَةٍ لَمْ يَسْبِقْ لَهَا مِثِيلٌ؛ وَنَزَلَ إِلَى هَوَاةٍ سَاحِقَةٍ، وَأَصْبَحَ

الاشْتِغَالُ بِهِ مَفْسَدَةٌ لِلْعَقْلِ وَالْقَلْبِ، وَمَضِيعَةٌ لِلزَّمَنِ، لَا يُعِيدُ فِي دِينِ اللَّهِ وَلَا يُنْظِمُ مِنْ حَيَاةِ النَّاسِ. وَهَذَا وَمِثَالُ لِمَا كَتَبَهُ بَعْضُ الْمُفْهَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ: عَرَفْتُ ابْنَ عَرَفَةَ الْإِجَارَةَ فَقَالَ: بَيْعٌ مَنْفَعَةٌ مَا أَمْكَنَ نَفْلَهُ، غَيْرَ سَفِينَةٍ وَلَا حَيَوَانٍ، لَا يُعْقَلُ بِعَوَاضٍ غَيْرِ نَاشِيءٍ عَنْهَا، بَعْضُهُ يَتَبَعُضُ بِتَبْهِيضِهَا. فَأَعْتَرَضَ عَلَيْهِ أَحَدُ تَلَامِيذِهِ، بِأَنَّ كَلِمَةَ بَعْضٍ تُتَابِي الْأَخْتِصَارَ، وَأَنَّهُ لَا ضَرُورَةَ لِذِكْرِهَا، فَتَوَقَّفَ الشَّيْخُ يَوْمَئِذٍ، ثُمَّ أَجَابَ بِمَا لَا ظَلِيلَ تَحْتَهُ.

وَقَفَّ التَّشْرِيعُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ وَوَقَفَّ الْعُلَمَاءُ لَا يَسْتَظْهِرُونَ غَيْرَ الْمُتُونَ، وَلَا يَعْرِفُونَ غَيْرَ الْحَوَاشِي وَمَا فِيهَا مِنْ إِبْرَادَاتٍ وَأَعْتِرَاضَاتٍ وَالنَّعَازِ، وَمَا كُتِبَ عَلَيْهَا مِنْ تَفْصِيحَاتٍ، حَتَّى وَتَبَّتْ أُوْرُوبَا عَلَى الشَّرْقِ تَضَعُهُ بِيَدِهَا، وَتَرْكُلُهُ بِرِجْلِهَا. فَكَانَ أَنْ تَقْفَ عَلَى هَذِهِ الضَّرَبَاتِ، وَتَلْفَتَ ذَاتَ الْبَيْمِينَ وَذَاتَ الشَّمَالِ، فَإِذَا هُوَ مُتَخَلِّفٌ عَنِ رَكْبِ الْحَيَاةِ الرَّاجِفِ، وَقَاعِدٌ بَيْنَمَا الْفَافِلَةُ تَسِيرُ، وَإِذَا هُوَ أَمَامَ عَالَمٍ جَدِيدٍ، كَلَّمَهُ الْحَيَاةُ وَالْقُوَّةُ وَالْإِنْتِجَاعُ، فَرَاعَهُ مَا رَأَى، وَبَهَّرَهُ مَا شَاهَدَ، فَصَاحَ الَّذِينَ تَنَكَّرُوا لِتَارِيخِهِمْ وَعَقَّبُوا آبَاءَهُمْ، وَسَوَّأَ دِينَهُمْ وَتَقَالِيدَهُمْ: أَنْ هَا هِيَ ذِي أُوْرُوبَا يَا مَعْشَرَ الشَّرْقِيِّينَ، فَاسْلُكُوا سَبِيلَهَا، وَقَلِّدُوا فِي خَيْرِهَا وَشَرِّهَا، وَإِيمَانِهَا وَكُفْرِهَا، وَحُلِيِّهَا وَمُرَّهَا، وَوَقَفَّ الْجَامِدُونَ مُوقِفًا سَلْبِيًا، يُكْثِرُونَ مِنَ الْحَوْقَلَةِ وَالتَّرْجِيعِ، وَأَنْظَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلَزِمُوا بُيُوتَهُمْ، فَكَانَ هَذَا بُرْهَانًا آخَرَ عَلَى أَنَّ شَرِيعَةَ الْإِسْلَامِ لَدَى الْمَعْرُورِينَ لَا تَجَارِي التَّطَوُّرَ، وَلَا تَتَمَسَّى مَعَ الزَّمَنِ، ثُمَّ كَانَتْ النَّتِيجَةُ الْحَثْمِيَّةُ، أَنَّ كَانَ التَّشْرِيعُ الْأَجْنَبِيُّ الدَّخِيلُ هُوَ الَّذِي يُهَيِّمُ عَلَى الْحَيَاةِ الشَّرْقِيَّةِ، مَعَ مُنَافَاةٍ لِدِينِهَا وَعَادَاتِهَا وَتَقَالِيدِهَا، وَإِنْ كَانَتْ الْأَوْضَاعُ الْأُوْرُوبِيَّةُ هِيَ الَّتِي تَغْزُو الْبُيُوتَ وَالشُّوَارِعَ وَالْمُنْتَدِيَّاتِ وَالْمَدَارِسَ وَالْمَعَاهِدَ، وَأَخَذَتْ مَوْجَتُهَا تَقْوَى وَتَتَغَلَّبُ عَلَى كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنَ النُّوَاجِي حَتَّى كَادَ الشَّرْقُ يَنْسَى دِينَهُ وَتَقَالِيدَهُ وَيَقْطَعُ الصَّلَاةَ بَيْنَ حَاضِرِهِ وَمَاضِيِهِ، إِلَّا أَنَّ الْأَرْضَ لَا تَخْلُو مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ، فَهَبَّ دُعَاءُ الْإِصْلَاحِ يُهَيِّبُونَ بِهَذَا الْمَخْدُوعِينَ بِالْعَرَبِيِّينَ، أَنْ: اخْذُوا جَذْرَكُمْ، وَكُفُّوا عَنِ دَعَائِكُمْ، فَإِنَّ مَا عَلَيْهِ الْعَرَبِيُّونَ مِنْ فُسَادِ الْأَخْلَاقِ لَا يُدُّ وَأَنْ يَنْتَهِي بِهِمْ إِلَى الْعَاقِبَةِ السَّوْأَى، وَأَنَّ هُمْ مَا لَمْ يُضْلِحُوا فِطْرَهُمْ بِالْإِيمَانِ الصَّحِيحِ، وَبَعْدَلُوا طِبَاعَهُمْ بِالْمَثَلِ الْعُلْبَانِ مِنَ الْأَخْلَاقِ، فَسَوَّفَ تَنْقَلِبُ عُلُومُهُمْ أَدَاةَ تَشْخِيبٍ وَتَدْمِيرٍ، وَتَتَحَوَّلُ مَدِينَتُهُمْ إِلَى نَارٍ تَلْتَهُمُهَا وَتَقْضِي عَلَيْهِمُ الْقَضَاءَ الْأَجِيرَ. ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ قَدَّمَ رَبُّكَ ﴿١﴾ يَمَادِ ﴿٢﴾ إِذْ ذَاكَ الْأَمْسَادِ ﴿٣﴾ الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٤﴾ وَتَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٥﴾ وَفِرْعَوْنَ وَآلِ الْأَوْدَادِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ طَعَمُوا فِي الْبِلَادِ ﴿٧﴾ فَأَكْفَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿٨﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَإِلْمِزَمَادِ ﴿١٠﴾ ﴿١١﴾. وَيَصِيحُونَ بِهَذَا لِالْجَامِدِينَ دُونَكُمْ النَّبْعِ الصَّافِي، وَالْهَدْيِ

الكَرِيمِ، لِيَتَّبِعِ الْكِتَابَ وَقَدِي السُّنَّةَ، خُذُوا مِنْهُمَا وَيَتَّكُمُ، وَيَشْرُوا بِهِمَا غَيْرَكُمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَهْتَدِي بِكُمْ هَذِهِ الدُّنْيَا الْحَاثِرَةَ، وَتَسْعُدُ بِكُمْ هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةُ الْمُعَلَّبَةُ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾ (١).

وَكَانَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ أَنْ اسْتَجَابَ لَهُذِهِ الدَّعْوَةَ رِجَالٌ بَرَّةٌ، وَتَلَقَّتْهَا قُلُوبٌ مُخْلِصَةٌ، وَأَعْتَقَهَا شَبَابٌ وَهَبَهَا آخَرٌ مَا يَمْلِكُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ. فَهَلْ أُوذِنَ اللَّهُ لِتُورِهِ أَنْ يُشْرِقَ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ جَدِيدٍ؟ وَقَلَّ أَرَادَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَحْيَا حَيَاةً طَيِّبَةً، يَسُودُهَا الْإِيمَانُ وَالْحُبُّ وَالْإِحْسَانُ وَالْعَدْلُ؟ هَذَا مَا تَشْهَدُ بِهِ الْآيَاتُ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٢). ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفْقَانِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكُوفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٣).

(1) سورة الأحزاب، الآية: 21.

(2) سورة الفتح، الآية: 28.

(3) سورة فصلت، الآية: 53.